

# دراسات عن

## المؤرخين العرب

### الفصل الاول

#### نظرة عامة فى الموضوع

التاريخ موضوع يؤلف أحد الفروع الغزيرة المادة فى الادب العربى ، وقد قام المستعرب الالمانى وستنفلد **Wustenfled** بتتبع مجموعة من المؤرخين العرب الذين عاشوا فى السنوات الالف الأولى للإسلام ، فبلغ العدد ٥٩٠ . ومن المرجح أن كثيرين قد أفلتوا منه ، ولو تنبه إليهم لزاد العدد كثيرا . وكثير من آثار هؤلاء المؤرخين ضخم الحجم . يروى أن الطبرى المؤرخ ( ت ٣١٠ هـ ) أراد أن يعلى على تلاميذه كتابا فى التاريخ : أراد أولا أن يضم ٣٠,٠٠٠ ورقة ، ولما اعترض تلاميذه بأن العمر لا يكفى لدراسة مثل هذا الكتاب ، اختصره إلى العُشر ، فجعله ٣,٠٠٠ ورقة ، وهو ما يتفق مع نسخ ليدن والقاهرة . وقد ترك له هذا التأليف من الفراغ ما أتم فيه كتابا آخر بنفس الحجم عن القرآن ، ويقال عنه أيضا إنه عُشر الحجم الذى كان يعتزمه أصلا . ومتوسط ما كان يكتبه فى اليوم ، فى الحقبة المثمرة من حياته ، ٤٠ ورقة ؛ ووجد هؤلاء الذين قسموا الاوراق التى كتبها على أيام حياته من المهدي إلى اللحد أنه قد كتب ١٤ ورقة فى كل يوم من أيام حياته .

وقد اعتُبر حقبة ، هو وسلفه الجاحظ البصرى ، وخلفه ابن حزم القرطبي ، أكثر المؤلفين العرب تأليفاً، ولكن يبدو أن ليس لأحد منهم الحق في هذا الامتياز . إذ تملأ عناوين كتب المدائني ( ت ٢٢٥ هـ ) . الذى كان من أوائل المؤرخين ، ما يزيد على خمس صفحات . وتستهل كتب ابن عساكر ( ت ٥٧١ هـ ) بتاريخ دمشق في مئة مجلد ، وكانت المسودة الاولى منه تضم ٥٨٠ كراسة ، والأخيرة ٨٠٠ . ولكن يليه مجموعة من عناوين الكتب التى لا تشعل غير صفحتين ، وبعضها ذو حجم واضح الضخامة . ومن الواضح أن تاريخ الطبرى ، على ضخامته ، لا يقارن في الحجم بتاريخ الإسلام للذهبي في القرن الثامن الهجرى .

وكان لمعالجة التاريخ على هذا المجال المتسع بعض المحاسن الواضحة ، وإن كنا سنرى أن المحتويات لا تناسب مع ضخامة الكتاب أحيانا إذ كثيرا ما تتضخم المجلدات بتكرير المادة الواحدة أو التى تكاد تكون واحدة ، لتغير سند رواها . ولذلك من الممكن اختصار مجلد كامل من ابن عساكر إلى صفحات قلائل (غالباً) إذا ما رضى القارئ بسند واحد للخبر الواحد . ولكن من الواضح أن ثمن النسخ لا بد كان مرتفعا ، حتى في حالة تناسب المحتويات مع الضخامة ، ومن ثم لم يكن تنسخ إلا نسخ قليلة ؛ وتبين الأقوال المتناثرة التى نحصل عليها عن ثمن الكتب أو تكاليف النسخ أنه لم يستطع على مجموعات كاملة من أمثال هذه الكتب إلا قليل من الدارسين . وحينما يتوفى مالك مثل هذه الكتب ، كانت المجلدات توزع بين الورثة . ولذلك كان الدارس الذى يستطيع أن يرى جميع مجلدات كتاب من هذا النوع بالرحلة إلى البلدان المختلفة في كثير من هذه الاحوال يعتبر نفسه حسن الحظ .

وبرغم أن ثنت وستفلمد ينتهى بعام ١٠٠٠ هـ : لا يتدئ بوفاة النبي .  
والاقبال المتعلقة بالأدب المنشور المدون على صورة الكتب قبل العهد العباسى  
غامضة ولا يوثق بها فى أغلب الاحيان . واغل الطبيعي للكتاب لدينا مادة ما مثل  
الورق : حُفظ فى الذاكرة أو لم يحفظ . ولكن اغل الطبيعي للكتاب لدى العرب  
هو الذاكرة : دُونَ أو لم يدون . وفى القرآن شواهد على أنهم كانوا يعتبرون  
الذاكرة محل الكتاب ، بغض النظر عن أهمية التدوين عندهم . والنص المروى قد  
يُحرّف أو يُنسى ؛ وقد يُدوّن أو يحفظ . ونقرأ فيه عن نصوص واضحة فى صدور  
من وصفوهم بالمعرفة . فيقال إن أهل الكتاب اتخذوا « جداول » من كتبهم  
المقدسة : ومن الممكن أن توجد هذه الكتب ، وقد وجدت فعلا ، مستقلة عن هذه  
الجداول ، وأمكن نقلها على هذا النحو إلى الانبياء بالوحى . وستتاح لنا الفرصة  
فيما بعد لملاحظة قوة سيطرة هذا التصور عليهم حتى فى الوقت الذى دونوا فيه  
وقيدوا الكتب الضخمة على نطاق واسع .

وستشغل الاسباب التى منعت تطور الادب المنشور قبل العصور العباسية  
والعلل التى تغلبت عليها بعض وقتنا فى الغد . والأمر الذى يثير عجبنا، عند اعتبار  
الضخامة الهائلة التى بلغ إليها الادب التاريخى ، هو سرعة ذلك التطور . ويشبه  
ذلك التدفق المفاجيء لقدر كبير من الماء كان مخزوننا . ولعل أحد الاسباب  
اختراع لم يعط فى تاريخ التقدم القيمة التى هو أهل لها ، ذلك هو الورق ، الذى  
أدخله المسلمون فى أوروبا . وقد حصل عليه المسلمون من الشرق الأقصى ،  
وأخذوا فى استخدامه وصناعته حتى فى القرن الأول من تقويمهم . ويشبه ذلك  
الاختراع ، فى ترخيصه عملية إنتاج الكتب ، اختراع الطباعة .

ولكن يبدو أن الاسلام نفسه ، مع ظهور العباسيين ، وبناء عاصمتهم العظيمة بغداد ، حطم الاغلال . حقا ليس من الواضح أن الاسرة الجديدة استبدلت بالمثل الاموية في التدين والاخلاق أحسن منها . ولكن من اليسر تبين الترحيب الذي لقيته الاسرة الجديدة ، إذ كانت الاضطهادات بين بنى أمية وآل النبي من العمق بحيث لا تسمح بالاخلاص لاحدهم . ويروى عرضا كيف أبطل عمر بن عبد العزيز الورع سب علىّ على المنابر : ولذلك يحترم الشيعة ذكراه . ولكن كان لهذا الخضوع للعاطفة من النتائج الخطيرة في زعزعة سلطة الامويين ما كان لاسترجاع رفات نابليون في زعزعة دعائم المملكة الفرنسية . وحين نقرا كيف لم يكن الناس في العهد الاموي يجردون على تسمية أبنائهم بعلى ، أو حسن ، أو حسين ، لا يدهشنا أن تتأخر أقدم ترجمة للنبي إلى ما بعد قيام العباسيين . إذ لم يكن من الممكن أن تروى ترجمة النبي في أيام الامويين دون زعزعة إخلاص المسلمين لحكمهم : زعزعة خطيرة : ولم تكن النتائج لتحسن الاوضاع . فإذا كان الناس خافوا أن يسموا أبناءهم عليا ، أو حسنا ، أو حسينا ، وألقوا سماع سب علىّ على المنابر ، فإنهم كلما قل سماعهم أبناء صدر الإسلام ، ازداد احتمال احتفاظهم بطاعتهم .

ومن المرغوب فيه أن نعرى بعض الاسس التي نستطيع أن نقيم عليها تصنيفا لهذا الأدب الفسيح ، وربما زدنا بها تصورنا لما نريده من التاريخ . حقا إننا لسنا في حاجة إلى أن نشغل أنفسنا بالسؤال عن كيفية تدوينه : فقد قدّمت عدة نظريات مختلفة عن ذلك الموضوع الغامض . ومن المحتمل أن نتفق جميعا على أنه سجل للحوادث : وأن تلك الحوادث هي غالبا ، وإن لم يكن دائما ، أقوال الناس وأفعالهم . ولعلنا نحصل على بعض أسس التصنيف من هذا التعريف .

أولا من القدر المعالج في المكان والزمان ، فهناك تواريخ عامة وتواريخ خاصة . فكتاب الطبرى تاريخ عام ، في قصده على أية حال . ولذلك يستهل بتعريف الزمان ونظرية عن عمر الدنيا ، وعنوانه تاريخ الرسل والملوك . وحين يصل إلى ظهور الاسلام ، يقتصر على الجزء الذى ضمه الاسلام من العالم . وسار غيره من المؤرخين العامين المعترف بهم على الخطة نفسها .

وقيد المؤرخون الذين كانت خططهم أقل طموحا بالاجزاء الاسلامية من الارض أو بهذا أو ذاك من تلك الاجزاء : أو بعهد ما من التاريخ الاسلامى عامة أو من تاريخ دولة إسلامية خاصة . ولذلك لدينا تاريخ الاسلام للذهبي الذى أشرت إليه ، وتواريخ أقطار كمصر ، والأندلس ، والمغرب ، أو بلدان كمكة ، والمدينة ، ودمشق ، ونيسابور ، وهمدان ، وهراة أو أسرات كتاريخ الخزرجى لآل رسول في اليمن ، أو تاريخ أبى شامة لدولتى نور الدين وصلاح الدين .

ويتم أساس آخر للتصنيف للأشخاص الذين كان لهم نصيب في الحوادث . والأحرى أن يسمى هذا الفرع ترجمة لا تاريخا ، ولكن الخط الفاصل بين الاثنين غير بارز في الغالب . وحيثما يكون الشخص المدونة حياته حاكما ، يختفى الخط الفاصل : إذ أن الحاكم هو الدولة وفقا للقول المشهور للويس الرابع عشر ، وترجمته تاريخ لعصره . ولما كانت الدول المدون تاريخها خاضعة للحكم المطلق إلا في أحوال نادرة ، وجدت التواريخ المتابعة أقسامها الطبيعية إلى فصول بتعاقب الحكام . وحيثما يكون عنوان مثل هذا الكتاب بسيطا ، لا خياليا ، نجده كثيرا يتفق مع ذلك : فتاريخ الطبرى ، كما رأينا ، تاريخ الرسل والملوك : وأمثال العناوين التالية : تاريخ الخلفاء ، أو أخبار الخلفاء ، عامة العموم ، ولا يزداد وضوح هذا الفاصل بين التاريخ والترجمة حين لا يكون الموضوع حاكما وإنما وزير

مطلق السلطة ، شأن كثير من الوزراء ، فحياة الوزير الطيب على بن عيسى ، التي نثرها حديثا مستر بـوون Mr. Bowen ، في الحقيقة تاريخ لعهد المقتدر : لأنه بالرغم من قدرة الخليفة على تعيين الوزراء وعزلهم حسب هواه ، كان الوزير في أثناء تقلده السلطة مستولا عن جميع مصالح الدولة . حقا اعتبر الحجة الكبير في القانون الدستوري الطريقة التي يفوض بها الحاكم الوزير سلطته أمرا عاديا . ولذلك يجب اعتبار الكتب التي تروى حياة الوزراء تواريخ لعهدوهم . ونملك من الكتب الكثيرة التي عاجلت هذا الموضوع قطعا من كتابين ، وربما عثرنا على غيرهما . وإذا كانت هذه الكتب تختلف في الصورة عن التواريخ، فإن ذلك راجع إلى ميل المترجمين العرب إلى إيراد الأخبار على ترتيب سنوي بدلا من اتباع رواية الاحداث على ترتيب وقوعها .

وحيثما كانت الترجمات لأشخاص أقل اتصالا بالشئون العامة ، لم تصنف مع التاريخ بدون شروط معينة ، ولكن الباحث الحديث في ذلك الموضوع لا يستطيع أن يففلها ، إذا أراد أن يفهم شيئا عن حياة الرعية وشواغلها ، إلى جانب تتبعه الملوك في كفاحهم الخارجى والداخلى ، وروابط الزواج بينهم ، وقوانينهم . وأدب التراجم عند العرب غاية في الغنى : حقا يبدو أنه كانت تقام سوق لترجمة من يتوفى في بغداد من الكبراء كما هو الحال في عواصم أوروبا في أيامنا ؛ وحيثما تفرض شخصية رجل ما تأثيرها في رأى العام لبعض الأسباب ، أو تبلغ آثاره الادبية مرتبة القداماء ، تلتف حوله عدة تراجم . ولاشك أن تراجم الاحياء كانت نادرة ولكننا لدينا مثال لاحدها في كتاب أبي حيان التوحيدى عن الوزيرين ابن العميد الثانى والصاحب بن عباد ، الذى احتفظ ياقوت بمقتبسات كبيرة منه ، على حين يوجد من الأسباب ما يجعلنا نؤمن بأن الكتاب كله لا يزال موجودا . فقد كان على وشك أن يطبع في الآستانة ، ولكن السياسة التي أرغمت الصحفيين

العثمانيين على إخفاء قتل الرئيس مك كنلى Mc Kinley ، منعت نشر كتاب يهاجم فيه أحد الوزراء . أضف إلى ذلك أن الكتاب اشتهر بأنه يجلب النحس ، كـبعض الكتب الأخرى .

والادب المؤلف من تراجم مجتمعة غزير بصورة غير عادية ، ولذلك كان أيسر على دارس تاريخ الخلفاء أن يجد شيئا ما عن الاشخاص المذكورين في التواريخ من عثوره عليه في أية حالة مشابهة . وقد جمع بعض المؤلفين تراجم الكبراء في جميع الالوان : وكتاب ابن خلكان معروف ، ولا تزال توجد عدة مجلدات من كتاب آخر أوسع نطاقا منه إلى درجة بعيدة ومتأخر عنه بما يقرب من قرنين . ولكن الأكثر أن يقتصر هؤلاء الجامعون على فئة خاصة من الاشخاص - الشعراء ، أو الاطباء ، أو فقهاء أحد المذاهب ، أو القراء ، أو المحدثون وما أشبه ، أو يعالجون أشخاصا اشتهروا بصفة أو عمل ما ، كالخلاء أو الطفيليين .

وامتاز في هذه الكتب أربعة مناهج أو تنظيمات . قـد نصف أولها بالتحكمى . كما نرى في ذلك المخزن الكبير للمعلومات التاريخية ، أعنى كتاب الاغانى ، الذى يعتمد الترتيب فيه على مجموعة من مئة قصيدة ملحنة اختيرت إجابة لامر أحد الخلفاء : وأدى ذلك إلى مجموعة من الروايات المتصلة بالشعراء والموسيقين . والمنهج الثانى جغرافى ، إذ يتخذ الجامع أساس تنظيمه الاقطار التى يتنسب إليها الاشخاص الذين يتناولهم . وأشهر أمثله « يتيمة » الثعالبى ، حيث يجمع الشعراء حسب أقطارهم ، وعيون ابن أبى أصيبعة ، حيث يفعل مثل ذلك بالأطباء . والاساس الثالث حوْلى . وتسمى الكتب التى من هذا النوع « الطبقات » فتعالج الموضوعات فيها وفقا للأجيال . وأشهر أمثلة هذا المنهج طبقات الحفاظ

للذهبي ، وطبقات الشافعية للسبكي . والاساس الرابع ، وهو الاكثر شيوعا من بعض النواحي ، ألف باني ، وهو الذي اتبعه ياقوت .

ولعل نظام الطبقات هو أنفع المناهج للباحث التاريخي : إذ يوجد فيه الاستمرار ، الذي هو جوهر التاريخ . وتفوقه على النظام الجغرافي واضح ، لأن الدراسات الاسلامية مشتركة إلى درجة عظيمة ، بالرغم من انقسام العالم الاسلامي منذ وقت مبكر جدا إلى دويلات مختلفة ، بعضها لم يتصل بغيره إلا بصلات واهنة . وربطت اللغة المشتركة ، والدين المشترك ، والادب المشترك ، بين أسبانيا ومصر وبين سورية والعراق ، حتى عندما انقطعت عرى الروابط السياسية ، ولم يعد هناك أمل في الاتحاد ثانية . وكان الشعراء ورجال العلم والحرف يرحلون من قطر إسلامي إلى آخر ، ويقيمون حيثما أملوا النجاح إقامة مؤقتة أو دائمة . حقا توجد أمثال تبالغ في مساوى النفى : ولكن كثيرين ذكروا أنه طريق النجاح . وأشهر الشعراء العرب جميعا ، المتنبى ، لم يستطع أن يبقى طويلا في أى قطر : ووجد من يرعاه في مصر ، وسورية ، والعراق ، وفارس . ولذلك يعلق النظام الجغرافي أهمية كبيرة على ما هو عارض . وضحى الذين اتبعوا الترتيب الالف باني بعض توضيحات ، إن لم يكن بالاستمرار ، فبالتمائل أو بعض الصلات الاخرى التي تربط موضوعاتهم على أية حال . وكانت توضيحات ابن خلكان التي من هذا الصنف لها شأنها ، وارتكبت ياقوت بعضها .

ثالثا من الممكن أن نحول الاهتمام من المكان والاشخاص إلى الاحداث نفسها . وسنرى أن أقدم صور الرواية التاريخية اتبعث ذلك الاساس . فقد كان التاريخ المبكر للإسلام مجموعة من الحوادث ، سجلها شاهد عيان أو أكثر : وهى لهم مقتل عثمان ، وموقعة الجمل ، وموقعة صفين ، والتحكيم ، وفتوح البلدان

المختلفة ، روايات متناثرة ، نظمت فيما بعد في تاريخ مستمر . واستمرت الرسائل ، كما يجب أن نسميها ، تدون عن هذه الاحداث وغيرها بعد أن صارت التاريخ المستمرة مألوفة بزمن طويل . ومن الممكن أن تعالج الاحداث لا على أنها تستحق الذكر في ذاتها ، بل على أنها تمثل مبدءا ما في الطبيعة البشرية أو في حكومة العالم . وأمدنا هذا التصور بعدد عظيم من المختارات ، وما أشبه ؛ ولا يفوق العربية في هذا الصنف من الادب غير قليل من اللغات . وكثيرا ما لا تبذل أية محاولة لترتيب المادة . ومما تجدر ملاحظته أن كتابي التوخي اللذين من هذا النوع يتبع أصغرهما أساسا للترتيب ، أما أكبرهما فلا يتبع شيئا . فينقسم كتابه « الفرج بعد الشدة » إلى فصول تتناول مجموعات من الاحوال التي تخلص فيها الناس من خطر داهم دون توقع منهم للخلاص : مثل التخلص من الحيوانات المفترسة ، وقاطعي الطريق ، والاحلام المفزعة ، وغيرها . أما كتابه الأكبر ، « جامع السوايح » أو « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » ، الذي لم نثر منه إلى الآن إلا على مجلدين من أحد عشر ، فيخلط عمدا المادة التي تتناول عددا كبيرا من الطبقات : ويظن المؤلف أنه يسهل الاحتفاظ باهتمام القارئ إذا تجنب التناسق . وبرغم ذلك لم يفلح تماما في عزل الامور المتماثلة . وقد يبدو لنا بعد أن في ذلك الكتاب شيئا ما شبيها بالاساس الذي ترتب عليه كتب « المسانيد » ، أعنى جمع المواد وفقا للراوى الذى يرويها .

وأوجه العناية إلى ثلاث خصائص واضحة في هذا الادب .

أولا ، الاستقلال . حين بدأ التأليف الأدبي على النطاق الذى لا حظناه ، وجدت عدة فروع استخدمت فيها النماذج الاجنبية . وقلما يخفى الكتاب العرب دينهم : بل اعترفوا به في طهيم ، ورياضتهم ، وفلسفتهم . وقد بدأت جميع هذه الفروع من الأدب بالترجمة من الاغريقية : ويبدو أن من تلا الاولين لم يكف أبدا

عن ترجمة النصوص الاغريقية والتعليق عليها . وفي باريس مخطوط يحتوى على أربع ترجمات منفصلة لرسالة واحدة من رسائل أرسطو .

وكان بعض الناس يشكون في مهارة الذين ادعوا المعرفة بالعلوم الاجنبية في هذه العلوم : ولدينا أكثر من خير عن أشخاص أشرار قدموا الاسئلة الفلسفية الساخرة التي ظنها الفلاسفة أسئلة جادة وحاولوا الاجابة عليها . ونُظِر إلى المعارف الاجنبية في عهود مختلفة في رهبة وفرع . ولا نزاع في كونها أجنبية الأصل . كذلك اعترف بجلب أدب الخرافات من الهند عن طريق فارس : ووجد بعض المقلدين ، بل ربما الكثير منهم . ومن العسير في النحو أن تغفل صلته الظاهرة بالدراسات السريانية في تلك المنطقة ، وكانت بدورها قائمة على الدراسات الاغريقية : بل لقد وجد بعضهم أثرا يوناني الاصل في الاسم الذي أطلقه العرب على النحو ، وإن بدا ذلك أمرا مستبعدا .

حقا يضم الادب الاغريقي نظراء - ربما - جميع فروع التاريخ التي عددناها . فكان لدى الاغريق التواريخ العامة ، وتواريخ الاقطار والمدن ، وتراجم الاشخاص والطبقات ، والمنتخبات **Collectanea** والسجلات **Memorabilia** ، التي تشبه في خصائصها ما تطور عنه الادب العربي . وبرغم ذلك يبدو أنه لا يوجد أثر لأي ترجمة من مؤرخ إغريقي إلى اللغة العربية : ولم يعرف المفهرسون العرب تلك التواريخ التي تُعد في أوروبا نماذج الكتابة التاريخية . بل يبدو أنهم أهملوا أيضا المؤرخين السريانيين ، الذين كانت آثارهم تثير اهتمام اولئك المشتغلين بالدراسات القديمة . ربما أفادوا من المؤرخين الفرس ، مثل أولئك الذين يبدو أنهم وجدوا في العهود المسيحية ، ولكن هذه الافادة لا تتضح في العصور السابقة على ذلك . ويظهر أن التاريخ العربي مستقل عن هذه الكتب وقد نما أمام أعيننا ، وليس

استمرارا للتواريخ القديمة ، لاسباب ستشغلنا بعد ، وإنما هو نمو طبيعي ، جاءت به إلى الوجود حاجات المجتمع ، وتتجلى فيه خصائص خاصة به .

ثانيا ، كان المؤلفون في النادر جدا مؤرخين رسميين ، يقتضيهم واجبههم تسجيل ما تريد الحكومة تسجيله . وقد ذكر الطبرى وغيره حالات أمر فيها الخليفة بتأليف كتب ، مثل مجموعة الاغانى القديمة التى أمر المهدي بجمعها ، والرسائل التى أمر القادر بتدوينها عن المذاهب الاربعة . ويبدو أنهم لا يذكرون حالة أمر فيها الخليفة بتدوين كتاب تاريخي ، وإن دونوا حالات عاقوا فيها مثل هذه الكتب أو منعوها . ويمثل التواريخ الرسمية كتاب « التاجي » الذى عنوانه باسم « تاج الملة » ، وهو أحد القاب عضد الدولة ، ومؤلفه إبراهيم الصابى الكاتب المشهور . وقد ألف الرجل ، باعتباره كاتب عز الدولة بختيار ، ثانياً أمراء بغداد من البويهيين ، رسائل أساءت إساءة بالغة لابن عمه عضد الدولة ، الذى هاجمه بعد وفاة أبيه وخلعه عن عرشه . وبرغم أن إبراهيم لم يكن إلا منفذا لاوامر مولاه ، فلا يعتبر مسئولاً عما تضمنته رسائله من مشاعر ، وإنما يُسأل عن التعبير وحده . طلب إليه عضد الدولة أن يكفر عن إساءته فى تأليفها ، وكان التكفير المقترح أن يدون تاريخاً رسمياً لبني بويه . ويقال إن جزءاً كبيراً من هذا الكتاب مستطف فى تاريخ مسكويه ، ولكننا لم نعثر بعد على الاصل ، وإن احتفظ ببعض قطع منه فى اليتيمة للنعالي وتاريخ اليميني للعتبي . وحين سأل أحد الزوار إبراهيم عما يفعل ، فى أثناء اشتغاله بهذا الكتاب ، أجاب : « أباطيل أئمتها وأكاذيب أئمتها » . فلما سمع عضد الدولة ذلك القول استبد به الغضب حتى أمكن بكل مشقة أن يمنع من قتل إبراهيم قتلة شنيعة . وقد راجع عضد الدولة نفسه الكتاب قبل إخراجها . ومن الممكن وضع تاريخ اليميني أو أخبار غزوات يمين الدولة فى

الهند للعتبي مع التواريخ الرسمية : وقد يقال الأمر نفسه عن الوصف المليء بالعجيج، الذى قام به عماد الدين الاصبهاني كاتب صلاح الدين ، لاسترجاعه بيت المقدس ، وأعطاه العنوان الفخور « الفتح القسى فى الفتح القدسى » .

ولا تخلو مجموعة من التواريخ الرسمية للخلفاء من القيمة ، ولكن مثل هذه التواريخ فقيرة ولا يوثق بها ، إذ تقتصر على ما يرغب الحاكم فى تدوينه .

وقد كتب المؤرخون فى أغلب الأحيان لتعليم مواطنيهم ، وبرغم تأثرهم أحيانا بهوى دينى أو وطنى ، يعتبر حيادهم العام سمة مدهشة فى كتبهم . ولا نستطيع أن نجد مثالا لهذا أحسن من تاريخ مسكويه . فقد كان حياته كلها فى خدمة وزراء السلاطين البويهيين : المهلبى وزير معز الدولة وابن العميد وزير ركن الدولة ، ثم فى خدمة عضد الدولة نفسه وابنه بهاء الدولة مباشرة : وربما كنا نتوقع منه أن يكبح جماح نقده لأفعال هؤلاء السلاطين ، وما دام شرف العائلة كان يرتكز على أعمال أوائلها ، بالرغم من المعارك العنيفة التى نشبت فى الجيل الثانى منها ، ولكن ليس من أى أثر لمثل هذا التحيز فى كتاب مسكويه . والأشخاص الذين منحهم مدائحه التى ربما كانت تميل إلى المبالغـة هم الوزيران المهلبى وابن العميد ، اللذان كانا قد ماتا منذ زمن طويل حين أظهر كتابه ، ورويت أخبار مؤسسى دولة البويهيين دون أية محاولة لإخفاء جرائمهم ، ووصمهم بأتهام فظيع فى حالة معز الدولة . وكان تقديره لعضد الدولة له ما يبرره : فهو يلفت الانظار إلى محاسن إدارته ، التى يظن أنها ترجع إلى تعليم ابن العميد الاول ، ويؤمل أن تتكافأ الخدمات التى أداها للدولة مع الجرائم التى ارتكبها . ونسب إلى ركن الدولة فضائل معينة ، يبدو أن هذا السلطان كان يتحلى بها ، ولكنه أهمل ركن الدولة بالتضحية بشئون رعاياه فى سبيل شعور أحمق ( كيشوتى ) بالاخلاص لاصدقائه . وجعل من

أبي الهيجاء ما يشبه البطل ، وهو من بنى حمدان ، الذين كانوا على عداء دائم للبويعيين . والغريب أن المدائح التي أسبغها أبو شجاع على عضد الدولة بعد ذلك بقرنين مدائح مليئة بالتحمس ، على حين كان مسكويه ، الذي كان في خدمته ، بذلك الهدوء والعدالة .

والطبرى جامع للروايات أكثر منه مؤرخا ، ولكن كتابه يمتاز بما يشبه ذلك الحياء . فإذا كان عبر عن إعجابه بمواهب المعتضد العسكرية ، فمن الواضح أنه كان يتحلى بها فعلا ، وبرغم أنه كتب كتابه في عهد ذلك الخليفة ، ليس فيه ما يقسارن بتملق ابن المعتز . وربما كان المرء يتوقع أن يغار الخلفاء العباسيون من أسلافهم ، فيحاولون إخفاء ضعفهم أو انحرافهم عن الطريق السوى ، ولكن من العسير أن نجد شواهد على مثل هذه الرغبة في تاريخ الطبرى .

ويجب أن نجد السبب في كون معظم هؤلاء الكتاب ألفوا تواريخهم لا بصفتهم مؤرخين في البلاط ، وإنما بصفتهم أشخاصا قادتهم ميولهم إلى متابعة هذا الصنف من الدراسات . فكان الطبرى نفسه صاحب أملاك ، يسّر له أبواه في أوائل حياته الرحلة بعيدا ، وفي مجال واسع للحصول على المعارف التي أفاد منها بعدُ في محاضراته ومصنفاته : وعاش فيما بعد على الاجور التي ألف أن تجليها له قوافل الحجاج الآتية من طبرستان ، حيث توجد أملاكه . وكان الدينورى المؤرخ قاضيا ، وتقلد التنوخي القضاء أيضا . وكان كثير من المؤرخين من الكتاب مثل مسكويه وهلال ، وكانوا يعملون في الديوان العام . وكان أبو شجاع وزيرا متقاعدا .

ولفت ريبيرا Ribera الانظار إلى انه لم توجد منظمة عامة للتعليم إلى عصر نظام الملك الوزير السلجوقى ، الذى بنى المدرسة النظامية ، وكان التعليم حتى ذلك الحين متروكا للجهد الخاص . وقد نضم إلى ذلك حقيقة أخرى هى أن تدوين التاريخ كان فى أغلبه متروكا للجهد الخاص أيضا . وقد نسمى المؤرخين معلمى التاريخ بالمعنى اللغوى للكلمة : أى الاشخاص الذين تعهدوا بتهيئة المعلومات فى ذلك الموضوع ، لا أشخاص كلفهم شخص أو هيئة ما بتهيئتها . وكانوا أولا معلمين ، كما رأينا وستاح لنا فرصة أخرى لنرى ، وكانوا أحيانا كتابا .

وحيثما لم يكن للمؤرخ مورد خاص ، يبدو أنه استطاع أن يعتمد على مكافآت الطلبة الراغبين فى الحصول على ما يستطيع أن يقدمه لهم من معلومات ، وإن كان الامر الغريب أنه لم تصل إلينا روايات بهذا الصدد . ولكننا لدينا ما يكفى من الاشارات ليوضح أن أولئك المعلمين الذين كانوا يحلقون فى المساجد أو يعقدون الجلسات فى منازلهم كانوا عادة يأخذون مكافآت عن ذلك ، وإن مد الاثرياء من المعلمين كالجبايى المتكلم تلاميذهم أحيانا بالموارد التى تيسر لهم حضور الجلسات من أمواهم الخاصة .

ثالثا ، نلاحظ مناهج معينة ابتكرها المؤرخون العرب لضمان الصحة فى تسجيل الأحداث . أحدها تأريخها بالسنة والشهر ، بل باليوم . ويصرح بـكُل Buckle مؤرخ الحضارة أن ذلك العمل لم يحدث فى أوروبا قبل ١٥٩٧ م . ونجدته متطورا عند الطبرى من بين المؤرخين العرب ، وينسب إلى مؤلف سابق عليه، هو الهيثم بن عدى ، المولود ١٣٠ هـ ، تاريخ مرتب على السنين . وكان التقويم ضروريا لمثل هذا الغرض ، ويقال إن التأريخ بمجرة النبى من ابتكار الخليفة الثانى . ويوجد تدوين السنين والشهور فى أحد التواريخ الجاهلية التى سأواجه

الانظار إليها قريبا . ويقول الجواليقي ، الذى جمع الالفاظ المعربة ، إن معنى كلمة « تاريخ » « التوقيت » وإفها معربة من الكلمة السريانية التى بمعنى « الشهر » . ومن الغربى أن يكون ذلك كذلك ، لأن المادة وان كانت لا توجد فى عربة الشمال ، يوجد مثل لها فى لهجة الجنوب ، فى صيغة « ورّخ » ، التى يشتق منها « تواريخ » . وتوجد الحروف نفسها مجمعة فى نقش فينيقى ، يرجع إلى ما قبل التقويم الإسلامى ببضعة قرون ، وترجمه بعض الباحثين بكلمة « ميعاد » ، ولكن النص أنقص مما يمكننا من معرفة دلالة الخاصة . وإذا كانت الكلمة العربية تعنى حقا « التوقيت » فكونها وليدة الصيغة العربية القديمة « ورّخ » أرجح من كونها سريانية ، وقلب الواو همزة ليس أمرا شاذا . ولكن قد يظن البعض أن الكلمة أجنبية ومعناها « السنين » أو « الحوليات » .

ومن الطبيعى أن لم يحتفظ المؤرخون الاغريق ولا الرومانيون ، ولا كتاب الانجيل ، بالتواريخ احتفاظا واضحا : وكان لدى الرومانيين تقويم ثابت أقل فسادا من نظام الاغريق . ومن الواضح أن التقويم الإسلامى ، وإن كان لا يفى بأغراض الإدارة ، كان وحده الذى تناسب أحسن التناسب مع تسجيل الاحداث ، إذ إن عدد الايام فى كل سنة كان ثابتا دقيقا ، وكانت الشهور قمرية كاملة ، دون زيادة أى يوم . ولما لم تكن السنة الإسلامىة دورة شمسية ، كما كان يسميها القدماء ، وإنما مجموعة من اثنى عشر شهرا قمريا ، يجب أن نعترف بأن كلمة « التاريخ » لإبانة الميعاد صحيحة صحة فريدة .

والمنهج الثانى لضمان الصحة هو « الاسناد » وهو سلسلة الرواة الذين يمكن أن تتبع آثار الرواية عن طريقهم إلى شاهد العيان الأصلى الذى رواها . وقد صارت هذه الدراسة فى ميدان أقوال النبى وأفعاله علما : ويتألف من اختبار الحلقات التى وصل كل حديث عن طريقها إلى رجال أى جيل . وقد تفرع من

هذه الدراسات دراسات أخرى كثيرة : فلا بد أن يلاحظ قارئ معجم البلدان لياقوت أن المهمة الحقيقية لجامعه تمكن المحدث من تتبع كل رواية للاحاديث إلى موطنه . وكتاب السمعاني العظيم في الانساب ، بمعنى النسبة ، هو مساعدة لتتبع المحدثين . كذلك تفرعت دراسة التاريخ بالطريقة نفسها من دراسة الحديث : فقد كان دارسوا الفرعين أولا هم هم : ثم صار التاريخ فرعا متميزا تدريجيا ، وصار الاخبارى شخصا غير المحدث ، ونضيف إلى ذلك أنه كان أقل منه مرتبة . وبرغم ذلك استمرت فكرة وجوب تتبع كل رواية ، كى تكون جديرة بالثقة . فى مجموعة معروفة من الرواة إلى مصدرها ، سائدة على التأليف التاريخى حتى عصر متأخر . وهناك كتب تبدو محتوياتها من الخفة وعدم الاهمية بحيث يعجب المرء للجهد المبذول فى تدوين اسم كل راو والتاريخ والمكان اللذين سمع فيهما الرواية ؛ مثال ذلك مصارع العشاق للسراج ، وهو مجموعة من الاحوال التى يفترض ان رجالا أو نساء ماتوا فيها من أجل العشق ، ويسجل فيه المؤلف تسجيلا صحيحا دقيقا التاريخ الذى سمع فيه الخير ويذكر تفاصيل مماثلة عن الرواة . وهناك كتب تسير على نفس الاسلوب وأقوالها واضحة الكذب بحيث يعجب المرء من جرأة الكذب . ولكن بالرغم من أن نظرية الاسناد سببت متاعب لا نهاية لها أحيانا ، بسبب الابحاث التى ينبغى القيام بها لتوثيق كل راو ، والفهم وضع الاحاديث وتقليدها أحيانا فى سهولة ، لا يمكن الشك فى قيمتها فى ضمان الصحة ، والمسلمون على حق فى فخرهم بعلم الحديث . وفى السجلات القديمة الأخرى ، نضطر إلى الأخذ بما يروى لنا على مسئولية المؤلف : فمن النادر أن يخبرنا المؤرخ الاغريقى أو الرومانى بمصدر معلوماته . وقد أكثر الباحثة الالمان خاصة من الكتابة عن « نقد المراجع » محاولين تتبع روايات الكتاب الانجليين وغيرهم إلى المصادر التى حصلوا على مواردهم منها . وحيثما لا توجد هذه الموارد، لا تعطينا هذه المحاولات فى أحسن

حالاتها إلا فروضا ترجيحية . أما في آثار الطبرى ، والبلاذرى ، والتنوخى ، فيوفر علينا الكتاب أنفسهم هذا الجهد. أما هؤلاء المهتمون بالاخبار أكثر من اهتمامهم بمصادر ما فيغفلون عادة الاسناد .

ونعترف بأن عدة أسباب اجتمعت لعرقلة جهود هؤلاء الذين حاولوا أن يضمّنوا الصحة عن هذا الطريق . وأولها عدم جدارة الذاكرة البشرية بالثقة ، ونجد أمثلة ذلك حتى بين من اشتهروا بقوة حافظتهم . وثانيا الصعوبة التي واجهها كثيرون في ملاحظة الحقائق وبنات الخيال ملاحظة دقيقة ، والتميز بينها : ولذلك يصرح نيتشه Nietzsche بأن الانسان غير المتحضر يحيا لونا من ألوان حياة الاحلام ، يزوده الوهم فيها بصور لا تمت للواقع بسبب في تفسيره للتجارب. وثالثا أثرت الفكرة التي تمسكوا بها وتذهب إلى وقوع شىء ما فعلا لأن الراوى ذهب إلى وقوعه ، أثرت تلك الفكرة في صدق كثير من سجلات الاحداث . وغالبا ما تبني إعادة بناء التاريخ القديم ، حتى في أيامنا وفي أوروبا الناقدة ، على هذا الاساس . ورابعا وجد بين المحدثين الذين لا يحصى عددهم جماعة من الاشخاص المستهترين ، الذين شوهوا أو كذبوا عمدا . وبرغم ذلك كله ، تبلغ صحة أشهر المؤرخين العرب مرتبة سامية ، وتجعل كتبهم ذات نفع عظيم للبشرية .

